

## الجزء الثالث : ملف مانديلا

- نلسون مانديلا.. سجين الحرية
- وينى ومانديلا أسطورة القرن العشرين
- جراسا ماشيل.. زهرة موزمبيق

obeikandi.com

## نلسون مانديلا.. سجين الحرية

كان اسمه عند الميلاد «دوليها هلا» ومعناه المشاغب، ولم يكتسب اسمه المؤلف نلسون مانديلا حتى يوم التحاقه بالمدرسة، ومع أنه كان لا يؤمن بأن الأسماء تصنع قدر الإنسان، ولكنه عزا أصدقاؤه الزوابع التي واجهها إلى اسمه. وفي أول يوم له في المدرسة قالت له المدرسة إن اسمه الجديد هو نلسون مانديلا، فقد كان البيض لا يريدون ولا يستطيعون نطق الأسماء الإفريقية، ويعتبرونها تخلفاً.

ولد في شهر يوليو ١٩١٨ م في «مفيزو» وهي قرية صغيرة في إقليم أومتانا، كانت سنة مولده نهاية الحرب العالمية الأولى، وزيارة وفد المؤتمر الوطني الإفريقي إلى فرساي لكي يعبر عن معاناة الأفارقة في جنوب إفريقيا.

كان والده رئيس قبيلة، وكان يمكن لمانديلا أن يعيش حياة هادئة، فهو من أسرة حاكمة هي عائلة تيمبو الحاكمة بمنطقة ترانسكاي بجنوب إفريقيا. وكانت هذه العائلة تحكم المنطقة قبل أن تخضع لسيطرة العنصريين البيض، وقبل أن تفرض عليها قوانين التمييز العنصري التي سلبت المواطن الإفريقي صاحب البلد والأرض كل الحقوق الإنسانية: حق العيش والتنقل والتملك والعمل، وفرضت عليه ألواناً من العبودية والسجن والتعذيب. كل ذلك بموجب دستور جائر وضعه الغزاة البيض يحرم على الأغلبية الساحقة أصحاب البلاد الأصليين ممارسة السيادة على أرضهم.

وقصة الاستعمار في جنوب إفريقيا قصة مريرة، لعل بقعة في العالم لم تشهد نوعاً من الاستعمار الاستيطاني العنصري الذي جثم على البلاد منذ عام ١٩١٠ م، فقد كان إعلان اتحاد جنوب إفريقيا بمثابة عمل من أعمال إنهاء الاستعمار من بريطانيا؛ ليعطى لهؤلاء المستعمرين الغزاة (المستوطنين البيض) مزيداً من الحرية في البطش، وتجريد الأغلبية من حقوقهم ومن صفة المواطن ليخضعها لتمييز عنصري فادح متواصل.

في ظل هذه الأوضاع البائسة اليائسة ولد مانديلا عام ١٩١٨م، وأتيح له ضمن قلة معدودة أن يدرس الحقوق بجامعة جوهانسبرج، وبدأ يتدرب على المحاماه والأعمال القانونية. ولكن منذ بداية عمله اصطدم بقيود القوانين التي تكرس التفرقة والتمييز العنصرى. وطبقاً لهذه القوانين منع مانديلا من العمل كمحام فى جوهانسبرج، إلا إذا حصل على إذن من السلطات. وبالطبع لم تمنحه السلطات هذا الإذن، بل أصدرت أوامرها بإبعاده إلى منطقة بعيدة لكي يستحيل على زبائنه أن يصلوا إليه خلال ساعات العمل المسموح بها.

وفى عام ١٩٤٤م انضم مانديلا لحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى الذى تأسس عام ١٩١٢م، وقام بالاشتراك مع الآخرين لصياغة برنامج العمل للحزب الذى يعتبر حداً فاصلاً فى تاريخ جنوب إفريقيا، فقد أعلن البرنامج الكفاح الوطنى للسود عن طريق الإضرابات والمقاطعة والعصيان المدنى.

وفى عام ١٩٥٢م قاد مانديلا «حملة التحدى» التى اشترك فيها ٨٥٠٠ من المواطنين المتعددى الأجناس ضد القوانين والتشريعات غير العادلة. فألقت السلطات القبض عليه، وحكمت عليه بالسجن لمدة تسعة أشهر مع إيقاف التنفيذ، ووضعته تحت المراقبة، وحظرت نشاطه.

ويصف مانديلا كيف اضطهدته الحكومة فى السنوات التالية. وكيف حرّمته من حقه فى ممارسة مهنته أو إعلان معتقداته، يقول: «لقد اضطنعت الحكومة القوانين واستخدمتها ضدى لتغل نشاطى. وفسرت الحكومة قوانينها بطريقة محسوبة جعلتنى أبدو كما لو كنت خارجاً عليها، ووجدت نفسى أعامل كمجرم بلا جريمة. لقد جعلتنى القانون مجرمًا ليس بسبب فعل ارتكبته، وإنما بسبب ما أرمز إليه وأناضل من أجله».

ثم أدين مانديلا بتهمة الخيانة العظمى. الخيانة العظمى؛ لأنه يدعو إلى قيام دولة ديمقراطية غير عنصرية يتساوى فيها الجميع فى الحقوق والواجبات. وأثناء نظر القضية التى استمرت أمام المحاكم ٤ سنوات وقعت مذبحه شاريفيل (فى مارس ١٩٦٠م) وهى المذبحة التى أثارت غضب العالم كله، وأسفرت عن مقتل ٦٩ إفريقياً، وجرح المئات.

وبالرغم من براءة مانديلا من قضية الخيانة العظمى، إلا أن السلطات أصبحت تعتبر مانديلا خارجاً على القانون بصفة دائمة. وصدر الأمر بالقبض عليه، واضطر مانديلا إلى الاختفاء واللجوء إلى العمل السرى.

وقام بتأسيس منظمة «رمح الأمة» الجناح العسكرى لحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى . وأصدر مانديلا - باعتباره رئيساً للمنظمة - بياناً جاء فيه : «لقد انقضى عهد المقاومة السلمية وحدها ، ولم يكن الخيار خيارنا ، لقد واجهت الحكومة العنصرية كل مطلب سلمى بالقوة والعنف . . إن الأمم فى وقت تجد نفسها أمام طريقين لا ثالث لهما : الكفاح أو الاستسلام . وقد جاء هذا الوقت على جنوب إفريقيا . ونحن لن نستسلم ، وليست أمامنا فرصة أخرى سوى أن نضرب بكل ما متاح لنا من قوة لندافع عن حقوق شعبنا من أجل مستقبلنا وحریتنا» .

واستطاع - رغم تخفيه - أن يغادر البلاد ، وأن يشارك فى المؤتمر التأسيسى لمنظمة الوحدة الإفريقية الذى عقد فى أديس أبابا عام ١٩٦٣ م . وقد أثار هذا العمل ثائرة السلطات فى جنوب إفريقيا ، واعتبرته تحدياً لها . وبمجرد عودته أُلقت القبض عليه فى أغسطس ١٩٦٣ م بتهمة مغادرة البلاد بطريقة غير قانونية ، وأدين وحكم عليه بالسجن مدى الحياة .

وقد عرض نظام جنوب إفريقيا العنصرى على مانديلا أن يفرج عنه مقابل أن يغادر البلاد ، ولكن مانديلا رفض ، واشترط هو لخروجه من السجن أن يطلق سراح جميع زملائه المسجونين السياسيين ، وأن تعترف الحكومة بشرعية حزبه حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى قائلاً : «إن حریتى وحرية شعبى شىء واحد ولا يمكن أن يفصلا ، ولست مستعداً لأن أبيع أو أساوم على حق شعب جنوب إفريقيا فى أن يعيش حراً» .

كان يوم ١١ فبراير ١٩٩٠ م يوماً مشرقاً من أيام نهاية الصيف فى جنوب إفريقيا ، وفى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر أفرج عن سجين الحرية نلسون مانديلا بعد ٢٧ عاماً سجنًا متواصلًا . ويصف مانديلا الخروج بقوله : «عند بوابة السجن كان هناك مئات المصورين وكاميرات تليفزيون ، ورجال الصحافة وآلاف من المؤيدين ، وتملكنى الدهول والانتزاع ، فلم أكن أتوقع كل ذلك . وحينما دفع إلى فريق تليفزيونى بشىء غامق فروى الملمس تراجعاً قليلاً ظناً منى أن ذلك سلاح تم اختراعه أثناء تواجدى فى السجن ، فأخبرتني «وينى» أنه مكبر للصوت . وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل ، فلم أكن قد تمكنت من ذلك منذ سبعة وعشرين عاماً ، وأمدنى بفيض من القوة والبهجة ، وشعرت - وكنت فى الحادية والسبعين - أن حياتى تبدأ من جديد .

وعندما عدت إلى منزلي تحققت أن ما تشوقت إليه دائماً وهو الحياة العادية في منزلي لن يمكن تحقيقه، فإنه في تلك الليلة وعدة أسابيع وشهور ظل المنزل محاصراً بمئات المهنيين الذين أخذوا في الرقص والغناء والتهليل، ولم أجد مفرّاً من مشاركتهم، وكان ذلك على حساب أسرتي مرة أخرى.

كان نشاط «ويني» ومواقفها الحادة تجاه بعض رجال الحزب سبباً في إحداث فجوة بينها وبين قيادة الحزب. وخير مانديلا بين الزوجة أو الحزب فاختر الحزب. يقول في سيرته الذاتية: «في ١٣ أبريل ١٩٩٢م وفي مؤتمر صحفي أعلنت انفصالي عن زوجتي «ويني»، فقد أصبح الموقف صعباً لدرجة أنني شعرت أنه لمصلحة كل الأطراف: المؤتمر وويني والأسرة أن نفترق. وبعد أن استعرضت في بياني تاريخ علاقاتنا والتضحيات التي تحملتها وشجاعته وإخلاصها اقتنعت أنه نظراً للتوترات التي نشأت في علاقتنا في الشهور الأخيرة بشأن خلافها على عدد من القضايا فقد اتفقنا على الانفصال، وأن خطوتي تلك لم يدعني إليها الاتهامات ضدها في وسائل الإعلام؛ لأنها كانت وما تزال تثق في تأييدي الذي لم يتزعزع خلال تلك اللحظات الصعبة في حياتنا. . وأضفت: ربما كنت قد عميت عن أشياء بعينها بسبب الألم الذي كنت أشعر به لعدم قدرتي على القيام بدور الزوج أو الأب، ولكنني مقتنع أن حياة زوجتي أثناء وجودي في السجن كانت أصعب من حياتي، وكانت عودتي أكثر صعوبة بالنسبة لها، فقد تزوجت رجلاً سرعان ما تركها وصار ذلك الرجل أسطورة، وعند عودة الأسطورة إلى المنزل ظهر أنه مجرد رجل».

وكما ترك مانديلا بيته وأسرته خضوعاً لرغبة حزبه، فقد ترك الحزب والسلطة بعد ذلك، ولكن برغبته هذه المرة، ترك السلطة لئانه مبيك بعد أن أدى واجبه الوطني والإنساني على أكمل وجه، وصار أشهر شخصية سياسية في تاريخ القرن العشرين.

لم أشأ أن أستغرق في الكتابة عن مانديلا السياسي فقد كتب عنه الكثير، فهو أكثر الرجال المعاصرين الذين حظوا بالشهرة وبالكتابة عنهم، ولكنني شئت فقط أن أقدم مانديلا من زاوية أخرى، إنسان عادي يُحِبُّ ويُحَبُّ، وهذا ما أفردت له الموضوعين التاليين.

## وينى ومانديلا أسطورة القرن العشرين

وينى مانديلا - ماما ويثو، أى أم الأفارقة كما يعبرون عنها - ونلسون مانديلا رئيس جنوب إفريقيا، والزعيم الوطنى الإفريقى هما عطيل وديمونة القرن العشرين. . عطيل فى الأسطورة الأدبية قتل ديمونة مديا، ونلسون مانديلا الأسطورة الحية قتل وينى معنوياً ونفسياً، وحطم قصة حب رائعة ترددت أصداؤها فى أجواء القارة الإفريقية.

كانا رمزاً للحب والتفانى والنضال والبطولة طوال ٢٧ عاماً قضاها الزوج فى السجن يحلم بنظرة من زوجته، وبضمة من حنانها أو حتى لمسة من يدها. كتب لها فى السجن خطابات كثيرة بثها حبه وهيامه وأفكاره وآراءه، وكرست هى شبابها وحياتها كلها فى العمل على نشر هذه المبادئ والتعاليم بين شعبها شعب جنوب إفريقيا.

لم تستطع قوة وهما بعيدان خلف الأسوار أن تفرق بينهما أو تحدث جفوة، ولكن عندما أفرج عن الزوج وقعت الواقعة وحدثت الوشايات ولم يستطيعا أن يمنعا هجمة الاتهامات للزوجة المحبة الوفية التى كل جريمتها أنها شخصية قوية ناضجة مستقلة تريد أن تصد عن زوجها حقد الآخرين وتبصره حتى لا يسقط فى شباك المحيطين به - تقول وينى: «لقد كرسى حياتى كلها فى العمل على استبقاء مانديلا ومبادئه، وإنه مما يؤلمنى تقويض هذه المبادئ بواسطة الرجال المحيطين بمانديلا والذين يخدمونه». لم يرض هذا السلوك المستقيم رجال الحزب المسيطرين، فتأمروا وتكاتفوا للقضاء عليها سياسياً وإخماد نشاطها الثورى، ولفقوا لها التهمة تلو التهمة. وعندما شوهدت صورتها تماماً خيروا مانديلا بين الحزب والزوجة فاختر الحزب والسلطة، وكان الفراق والطلاق والانفصال.

كتب كلٌ منهما كتاباً يحكى سيرته الذاتية مع الآخر ، كتبت وبنى كتابها بعنوان «روحي ذهبت معه» وكتب مانديلا كتابه «المسيرة الطويلة إلى الحرية» حكى فيه قصته مع الفتاة الجميلة التى وقع فى حبها منذ اللحظة الأولى ، كتب يقول : «منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها وبنى تمنيت أن تصبح زوجة لى ، أول مرة رأيتها كانت تقف عند محطة أوتوبيس بالقرب من المستشفى التى كانت تعمل فيه كإخصائية اجتماعية فى سويتو ، إذ لمحت عيناي فتاة جميلة تنتظر الأتوبيس أدت رأسى أتابعها ، ولكن سيارتى تحركت وجرت سريعاً ، وظل وجه هذه الفتاة فى مخيلتى ومعى يطار دنى . وبعد عدة أسابيع حدث ما يشبه المعجزة ؛ إذ كنت فى مكتب رفيق النضال «أوليفر تمبو» فوجدت هذه الفتاة الصغيرة مع أخيها تجلس فى مواجهة تمبو الذى قدمها لى أنها تستشيريه فى استشارة قانونية» .

وفى اليوم التالى اتصل مانديلا تليفونياً بالمستشفى الذى كانت تعمل به وبنى وطلب منها مساعدته فى دفع مبلغ للدفاع عن المتهمين بالخيانة العظمى . ويقول مانديلا : كان ذلك مجرد ذريعة للقاءها ودعوته على الغداء فى مطعم هندي بالقرب من مكتبى . . كانت وبنى متألقة باهرة ، ولم تكن قد ذاقت من قبل الطعام الهندي الحاذق فأخذت تشرب كوب الماء تلو الكوب لتطفى لهيب فمها مما زادها جاذبية ، وبعد الغداء تمسينا فى حديقة مجاورة وحدثها عن آمالى وعن الصعوبات التى تواجه من يتهم بالخيانة العظمى ، وسألته إن كانت تقبل الزواج بى . . الحقيقة أننى لم أستطع مقاومة روحها وعاطفتها وشبابها وشجاعته ، وقعت فى حب كل ذلك منذ أول لحظة رأيتها . . وظلت وبنى عدة سنوات تضحك وهى تخبر الناس بأن مانديلا طلبها للزواج ، ولكنه لا ينوى ذلك . وكنت دائماً أؤكد لها أنى جاد فى الزواج منها ؛ وأن الأيام ستثبت لها صدق قولى ، فقد كان هناك حائل يحول دون إتمام هذا الزواج ؛ إذ كنت فى ذلك الحين أسعى للانفصال عن زوجتى الأولى «إيفلين ماسى» التى تزوجتها عام ١٩٤٦م ، وأنجبت لى ولدًا وثلاث بنات ماتت إحداهن .

كانت إيفلين الزوجة الأولى شديدة التدين تكره العمل السياسى ، ولا تعترف بالنضال الوطنى ، وفى عام ١٩٥٥م خيرت مانديلا بينها وبين استمراره فى الحزب (حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى) وبعد وقت قصير قبض على مانديلا مع آخرين

وأَمْضَى أسبوعين في السجن ، وعندما عاد إلى منزله «وجدت إيفلين قد تركته وأخذت الأولاد. . رجعت إلى مسكن موحد ساكن ، باختصار حصلت على الطلاق وتزوجت ويني في ١٤ يونيو ١٩٥٥م» .

كانت ويني السادسة بين أحد عشر أخاً ، وعندما أخبرت أباهما بعزمها على الزواج منى قال لها : «ولكنك ستتزوجين أليف سجون» ، وأثناء احتفال الزواج قال الوالد «لقد تزوجتي رجلاً متزوجاً فعلاً النضال» وتمنى لابنته حظاً سعيداً وأنهى كلامه «والآن يجب عليك أن تتبعي رجلك حيثما ذهب» . لم يصف كلام والد ويني جديداً ؛ فقد كانت الابنة قد قررت ذلك قبل الزفاف ، وقررت أن تسير في طريق من اختاره قلبها وعقلها . يقول مانديلا : «لقد شرحت لها الصعوبات التي تنتظرها ، وأخبرتها أننا محظوظان لأن لديها راتباً ضئيلاً من عملها كإخصائية اجتماعية ، وتفهمت ويني ذلك وقالت : إنها استعدت لهذه المخاطرة ومستعدة أن تلقى بنفسها في المخاطر من أجل مواصلة مسيرتي . . لم أعدها بشيء لا بذهب ولا بماس ، فلم أكن قادراً يومها على إعطائها شيئاً من هذا . . ربما كانت ويني كتب عليها الكفاح منذ مولدها ، فاسمها الثاني «نومزامو» معناه النضال أو معتاد المحاكمات ، إن الأسماء تتنبأ بما يكون . ويقول مانديلا : إن ويني كانت من وسط اجتماعي طيب ومن أسرة إفريقية عريقة ، ولكنها لم تكن تهتم بأى مظهر ، ولا حتى إذا كانت ستحصل على وجبة طعام تالية . وقبل الزواج كانت تتحرك بين أوساط وعلاقات اجتماعية صحية ومريحة ، وحياة تختلف كثيراً عن حياة المناضلين الذين لا يملكون قوت يومهم ، وبعد الزواج لم يكن هناك وقت ولا مال لشهر العسل فزوجة المناضل دائماً مثل الأرملة حتى عندما يكون زوجها غير سجين . كنت أنتظر محاكمتي بتهمة الخيانة العظمى ، وأعطتني ويني الأمل ، وشعرت أنني منحت عمراً جديداً وفرصة ثانية للحياة ، فحبي لها أعطاني إصراراً على الكفاح من أجل البقاء .

كانت ويني في الخامسة والعشرين من عمرها عندما تزوجت ، وسرعان ما اندمجت في الحياة السياسية التي يحيها الرجل الذي اختارته ، واندمجت في نشاطه الدائب وأنجبت له ابنتين جميلتين هما «زيناني» في فبراير ١٩٥٨م و «زندزيروا» عام ١٩٦٠م ، وكانت هذه هي كل السعادة التي شهدتها في زواجها ؛ إذ قبض على مانديلا ، وظل

سجيناً ٢٧ عاماً . وحسب قوله : عشرة آلاف يوم ، وطوال هذه الفترة لم تترك ويني لحالها ؛ فقد سجنّت مرات ومرات ، وذاقت الهوان والهول على يد الحكومة العنصرية . وفي عام ١٩٨٤م سمح لويني لأول مرة بزيارة زوجها في السجن ، وكان ذلك بعد ٢١ عاماً عندما وضع مانديلا يده في يد زوجته . يصف مانديلا هذا المشهد : «لقد قبلتها وضممت زوجتي ولم نتكلم وتركنا صوت قلبينا ينبض بالحب ، وتمنيت ألا أتركها أبداً ، ولكنني أدركت أنني سجين ، وأني منذ ٢١ سنة لم ألمس يد زوجتي» .

إن من يكتب ويوحد بهذا الكلام لا يمكن أن يكون إلا محباً عاشقاً ، فكيف انفلتت الأعصاب ووهنت العواطف وحدث الانفصال الذي وصف بأنه طلاق القرن العشرين .

الحقيقة ، أن ويني ظلمت من الجميع ، ولكنها استطاعت بعد عامين من الانفصال عن الزوج وعن النشاط السياسي الحزبي استعادة رصيدها السياسي ، وأن تجبر مانديلا بعدما عين رئيساً لجنوب إفريقيا أن يعينها نائبة لوزير الثقافة والعلوم .

لقد شوهدت الصحافة ووسائل الإعلام العنصرية سمعة ويني ، بل وشوهها أيضاً بعض رجال حزبها «حزب المؤتمر الوطني الإفريقي» الذين تكاتفوا للقضاء عليها سياسياً ، وإخماد نشاطها الثوري ، وأجبرت على الاستقالة من كل وظائفها في الحزب وفي لجنته التنفيذية ، ومن الرابطة النسائية ، وأصبحت منبوذة من الجميع ، ولم يتعامل معها أحد سوى عدد ضئيل من شباب حزبها الذين أظهروا بعض التعاطف معها ، واستطاعت بدعمهم أن تكسب قدراً من التأييد في المدن .

كانت العودة السياسية لويني البالغة من العمر ٦١ عاماً في ديسمبر ١٩٩٣م عندما رفع الحظر عن رابطة النساء التابعة لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي بعد جدال واسع حول هذا التنظيم ، وانتخبت ويني رئيسة للرابطة ، وهذا المنصب يعد ثاني أقوى منصب في الحزب بعد منصب رئيس المؤتمر . وقد دمعت عينا ويني عندما انتخبت رئيسة لرابطة النساء وهي تخطب بين مؤيديها : «لقد طوقتموني بشرف كبير ، أنا لم تصنعني وسائل الإعلام ، ولم أؤمن قط بأن زعماءنا تختارهم الصحافة ، هذه المرحلة قد ذهبت ، والآن فإن الجماهير تختار قادتها ، لقد جئت من قاع المجتمع ، ولا يمكن أن أدع شعبي في القاع ، إن السياسات الشعبية هي الصراع الوحيد الذي أفهمه ، وأنا لست مؤمنة بالسياسات التي تؤدي إلى ركوب المرسيدس وتتجاهل الجماهير .

وهكذا استردت وبنى لقب ماما ويشو، أى أم الأفارقة كما يعبرون عنها بتعاطف شديد فى دوائر الحزب. وعادت لتكون الابنة البارة بين مؤيديها، وخاصة الشباب المتحمس فى المدن والمعسكرات. وتقدمت وبنى الانتخابات كقيادة شعبية تمثل الجماهير المضطهدة والفقراء، وكانت الخدمات الاجتماعية التى تقدمها هى ما بنى لها قاعدة قوية بين الفقراء والمساكين. وفى بحث أجرى سرّياً فى الحزب حول مدى التأييد الذى تتمتع به زعامات الحزب وجد أن وبنى تدرج بين القادة الخمسة على القمة.

إن وبنى التى تعد من أشهر الشخصيات النسائية فى العالم، والتى تحسدها الكثيرات المتطلعات للزعامة، لم تعرف طعم الحياة الهادئة مطلقاً، فبعد زواجها من مانديلا عام ١٩٥٥م دخلت السجن عدة مرات حتى قبل أن يسجن مانديلا نفسه عام ١٩٦٢م لمدة ٢٧ عاماً متصلة. وكتب عليها أن تناضل فى أكثر من جبهة فى آن واحد. جبهة توفير لقمة العيش لابنتيهما وأطفال الشهداء، وجبهة تأليب الرأى العام المحلى والدولى ضد النظام العنصرى، وجبهة العمل للإفراج عن زوجها، ومواصلة كفاحها فى إطار حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى. . اعتقلت وذاقت كل ألوان التعذيب والإهانات، فجر منزلها عام ١٩٨٥م، وأشعلت فيه النيران مرة أخرى عام ١٩٨٨م، وكانت لا تستقر فى مكان خشية السقوط إما بيد أجهزة الأمن، أو برصاص القوى العنصرية.

وشنت على وبنى حملات ظالمة وألصقت بها اتهامات باطلة كثيرة، اتهمت باختلاس أموال الحزب، وأنها شاركت فى تعذيب صبي حتى الموت، وأنها مدمنة كحول، وأنها تتصرف بصورة غير مشرفة وغير مسئولة وتشوه سمعة الحزب، كما اتهمت جمعيتها التى تعرف باسم «اتحاد حراس مانديلا» بأنهم يضربون ويقتلون صبية المدارس، ويغتصبون الفتيات، ويحرقون المنازل والممتلكات الخاصة لكل من يعارض وبنى وأفكارها، حتى أصبح مجرد ذكر اسمها يثير الرعب. وسرب ذلك لمانديلا وهو فى سجنه، فلما خرج لم يضيع وقته، ولم يحاول أن يتأكد من صدق هذه الاتهامات، بل أمر وبنى بأن تلغى جمعيتها وتنهى علاقتها بهم. وداومت أجهزة الإعلام فى جنوب إفريقيا الموالين للتفرقة العنصرية، واستغلّت الفرص للتشجيع عليها وعلى الحزب حتى صارت وبنى موضوعاً سياسياً، واتخذ قرار انفصالها أعلى مستويات الحزب، وضغط الحزب على مانديلا ليطلقها إذا شاء البقاء فى قيادة الحزب ويكون

مرشحه الوحيد لرئاسة الدولة . لم يستطع مانديلا الصمود وأعلن قرار طلاقه ، وأجبرت ويني على التخلي عن كل مسئولياتها القيادية فى الحزب .

والغريب أنه بعد أن تم تشويه سمعة ويني وفقدت مركزها الحزبى ، برأتها محكمة العدل فى بريتوريا من تهمة قتل الصبى لعدم توافر الأدلة على تورطها . وبعد تبرئتها بدأ نجم ويني يصعد من جديد . . والمهم أن الانفصال لم يسكت ويني ، وإنما جاء كما لو كان حررها وأطلق قيودها وأعطاهم رخصة أن تقول أى شىء يرد على ذهنها كما تشتهى ، فهاجمت قيادات الحزب ، واتهمتهم بالفشل أن يكونوا قيادة شعبية ، ودعت إلى قيادة جديدة تحقق مصالح الجماهير ، وهذا مما دفع الحزب أن يطردها من مناصبه ، وأطلق شائعات عن غرامها مع محاميهما ، وكذلك إساءة استخدام أموال الحزب فى جولاتها فى الخارج .

لم تضيع ويني وقتها فى الرد على هذه الشائعات ولا البكاء على المناصب التى فقدتها ، بل طرحت مشاكلها الخاصة وركزت جهودها لتبرئتها من تهمة القتل لتستعيد وضعها السياسى ، وكانت تظهر فى الجنازات وفى المسيرات والأماكن العامة ، وتقابل الناس وتساءلهم عن مشاكلهم ، وعما يجب عمله لإصلاح أوضاعهم ، وعادت إلى نشاطها القديم بالعمل كإخصائية اجتماعية (ويذكر أن ويني أول فتاة سوداء عملت فى الحقل الاجتماعى والطبى فى جنوب إفريقيا بعد أن أكملت دراستها فى المجال الاجتماعى عام ١٩٥٣م) . ونزلت ويني إلى القاع مرة أخرى فى الأحياء البالغة الفقر فى جنوب إفريقيا ، وفتحت مدرسة ومستوصفاً فى فولابارك أكثر مناطق السود فقراً ، وذلك من حصيلة كتابها «روحى ذهبت معه» وهو - كما سبق الإشارة - عن مانديلا وفترة سجنه ، وكسبت ويني من هذا النشاط الاجتماعى شعبية كبيرة أهلتها أن تعود مرة أخرى منتصرة فى العمل السياسى .

والحقيقة ، أن ويني ومانديلا كليهما لم يخرج بعد كفاح دام ثلاثة عقود ونصف العقد من جحيم العنصرية سليماً . خرج مانديلا فلم يجد ويني التى تركها قبل ٢٧ عاماً زوجة البيت الطيعة ، بل وجد نفسه أمام قائدة سياسية محنكة عازمة على مواصلة كفاحها بفكر مستقل عنه . وعبرت ويني عن صدمتها فى مانديلا بقولها فى سيرتها الذاتية : «انتظرت طويلاً العيش مع إنسان يبادلنى الشعور نفسه فوجدت رمزاً تاريخياً

وسياسياً يحيا حياة غير إنسانية، وأضحى غير قادر على الوفاء بواجب الزوج والأب والجد، ولم يتصور أبعاداً أخرى فى الحياة غير البعد السياسى، إنه عاد إلى البيت رسمياً ولم يعد فعلياً» .

إن مانديلا خرج باحثاً عن السلطة للإفريقيين جميعاً، بينما كانت وبنى تبحث عن الزوج وعن قضايا الفقراء، فلم يلتقيا لا سياسياً ولا أسرياً، وأسدل الستار عن نهاية قصة حب جارف لشخصيتين رائعتين .

\* \* \*

## جراسا ماشيل.. زهرة موزمبيق

«الحب يزدهر في ربوع إفريقيا»، «محبان معاً على الطريق». «جراسا ماشيل هل تصبح السيدة الأولى لجنوب إفريقيا»، هذه بعض مانشترات الصحف في جنوب إفريقيا، وكلها تشير إلى العلاقة العاطفية التي تربط الرئيس مانديلا بصديقه أرملة الرئيس الموزمبيقى الراحل سامورا ماشيل الذى لقي مصرعه عام ١٩٨٦ م.

هذه العناوين كانت توحى بأنها تخوض فى قصة حب رومانسية، ولكن أمر العلاقة تطور من مجرد مشاعر عاطفية إلى مناقشات لها جوانب سياسية وأخلاقية واقتصادية ينقسم بشأنها الرأى العام فى جنوب إفريقيا وموزمبيق.

بدأت العلاقة تحتل الصفحات الأولى فى صحف جنوب إفريقيا عندما ظهر مانديلا وجراسا متشابكى الأيدي يتنزهان فى ضاحية هوتن حيث يوجد منزل مانديلا، وكان مانديلا يلبس قميصاً شبايياً أخضر اللون، وتمسك هى بوردة حمراء التقطها الرئيس وأعطاهها لها، وكان المنظر مثيراً للدهشة، وأعطى دلالة أن الرئيس يريد أن يجعل علاقته وعواطفه بمسز ماشيل معلنة وعلى الملأ، وعندما سأله أحد الصحفيين عن علاقته بجراسا لم ينكر أن بداخله طوفاناً من المشاعر الدافئة تجاهها، غير أنه لم يشر إلى زواجها.

العلاقة نشأت بينهما عندما التقيا لأول مرة فى جنازة أليفير تامبو رئيس حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى، وعبر مانديلا عن حزنه لجراسا أنه بفقدانها قد صار أكثر رجل فى العالم يحس بوحشة. ويبدو أن جراسا أخذت على عاتقها منذ تلك اللحظة أن تزيح عنه وحشته، وأخذت العواطف تنمو بينهما ببطء. ثم انطلقت الشائعات عندما شوهدا يتعانقان خلال الزيارة الرسمية التى قام بها مانديلا لفرنسا، وتوالى ظهورهما معاً فى

المناسبات الرسمية : فى حفل زواج الرئيس موجابى رئيس زيمبابوى من سكرتيرته الصغيرة، وأثناء استقبال مانديلا للملكى السويد «كارل جوستاف وسيلفيا»، كما اصطحبها معه فى زيارته الرسمية لبلدان جنوب شرق آسيا والفلبين .

وهكذا، أصبحت قصة العاشقين حديث المجتمعات ينقسم بشأنها المواطنون فرقاً وأشياءاً، البعض يؤيد العلاقة ويرى أن ارتباط مانديلا بهذه السيدة أمر طبيعى ؛ فهى تشعره بأنه لا يزال شاباً، ومن البديهى أن ينبض قلبه بالحب ليعوض عشرة آلاف يوم قضاها وراء القضبان . وأن من فى مثل سنه يحتاج إلى محبة امرأة طيبة لديها مؤهلات جراسا، ومنهم من ينظر إلى المسألة فى إطارها الأخلاقى ولا يوافق على أن تبقى هذه العلاقة غير الشرعية، ويرى أنهما يضريان للشباب مثلاً سيئاً بعدم زواجهما، ويعتبر من الخطأ أن يعيش كلاهما فى الخطيئة .

وجراسا ماشيل هى المرأة الثالثة فى حياة مانديلا بعد زوجته السابقتين إفلين ووينى . وهى مناضلة ثورية تبلغ من العمر ٥٢ عاماً، وتصغر مانديلا بحوالى ٢٧ سنة، مثقفة ذات خبرة نضالية، كرسّت حياتها للكفاح من أجل حرية بلدها موزمبيق ضد الاستعمار البرتغالى . ولدت عام ١٩٤٥م وتعلمت فى جامعة لشبونة فى البرتغال، وحصلت على شهادتها الجامعية فى الفنون واللغة الألمانية، وهى تتكلم البرتغالية والإسبانية والفرنسية والألمانية والإنجليزية، وقبل عودتها إلى موزمبيق تلقت فى تانزانيا تدريباً عسكرياً مع حركة فريليمو التى كان يقودها سامورا ماشيل، فخلبت لبه واستأثرت بقلبه وعقله فتزوجها .

وعندما وصلت حركة فريليمو إلى السلطة عام ١٩٧٥م، عينت جراسا وزيرة للتعليم، وشغلت هذا المنصب مدة ١٢ سنة، وكانت مهمتها شاقة فى بلد الأمية فيه تشمل ٩٣٪ من سكانه، وعندما تركت منصبها عام ١٩٨٩م كانت الأمية انخفضت إلى ٦٨٪، واختيرت خبيرة لليونيسيف، وغنمت تقديراً عالياً لجهودها التى لا تكل لإصلاح شأن الأطفال، ليس فى بلدها فحسب، بل امتدت لتستوعب أطفال إفريقيا كلها . والحقيقة أن جهودها فى هذا المجال تتوافق مع جهود مانديلا الذى يعتبر القوة المحركة لمؤسسة الأطفال الحاملة اسمه فى جنوب إفريقيا؛ لذلك فإن كثيرين يرونها أنسب امرأة تماثل مانديلا .

أما بالنسبة لأهالي موزمبيق، فإن جراسا أو ماما ماشيل أو أم الوطن كله كما يطلقون عليها فإن رد فعلهم تجاه علاقتها بمانديلا متحفظ حذر، والرأى الغالب كان يتمنى لو لم تقم هذه الصلة العاطفية احتراماً لذكرى سامورا ماشيل أحد قادة موزمبيق الأبطال فى معركة استقلال إفريقيا ضد الاستعمار. ويودون لو استطاعت جراسا أن تستميل مانديلا لفتح باب التحقيق فى الظروف التى أدت إلى مقتل سامورا، خاصة أن مواطنى موزمبيق يؤكدون أن الحادث كان مدبراً.

لقى سامورا مصرعه فى أكتوبر ١٩٨٦م عندما تحطمت طائرته السوفيتية فى الترانسفال (فى جنوب إفريقيا)، وكان بها قادة من زامبيا وأنجولا، ولم ينج من ركابها الـ ٣٤ إلا عشرة فقط، لم يكن سامورا منهم. وبدأت الشكوك على الفور تتهم حكومة جنوب إفريقيا العنصرية؛ فالجو كان طبيعياً وطاقم الطائرة كان مدرباً وعالمًا بالطريق. وذكر الأحياء منهم أن بوليس جنوب إفريقيا عندما وصل إلى مكان الحادث بدلاً من أن ينقذ الضحايا أسرع إلى حطام الطائرة، وأخذ يفتش فيها عن الوثائق الخاصة باجتماع القمة الذى كان سامورا متوجهاً إليها.

وفى الاحتفال بالذكرى العاشرة لوفاة سامورا، قال مانديلا: أن الحادث سرق من إفريقيا واحداً من أعظم قادتها. وإنه سيقم نصباً تذكاريًا لسامورا فى مكان الحادث، وإنه يقدم أكبر وسام من الطبقة الأولى للرئيس الراحل، وعندما تناولت جراسا الوسام قبل يدها، وقال: إنه سيعيد البحث فى أسباب الحادث بواسطة لجنة تقصى حقائق.

وطبقا للتقاليد الثقافية لموزمبيق، فإنه إذا مات الزوج فالأخ يرث زوجة المتوفى وأولاده. ولسامورا ماشيل إخوة. ولكن من غير المتصور أن جراسا ذات الشخصية القوية المستقلة تسمح لنفسها أن تورث. وفى كتاب «موزمبيق الثورة تحت النار» الذى كتبه جوزيف ماندلون، قال الكاتب: إن فريليمو الجبهة الحاكمة التى قادت استقلال البلاد لا تزال تنظر إلى الزوجات على أنهن أقل شأنًا من أزواجهن، وأنه سينقضى وقت طويل حتى تحصل النساء على حق المساواة بالرجال. وكان سامورا ماشيل يدرك ذلك، ويشعر بأنه لديه مهمة عليا بشأن إقناع رفاقه فى جبهة فريليمو أن يغيروا من نظرتهن للمرأة ومن سلوكهم نحو النساء؛ لذلك فى خطبة تقيده للحكومة المؤقتة فى سبتمبر ١٩٧٤م أعلن «أن واحدة من أهم الجبهات فى الصراع من أجل التحرر الحقيقى

لشعبنا هو تحرير المرأة. وأن الموزمبيقيات لا يزلن يعانين من عبئيهن باهظين: **أولهما** التقاليد الرجعية التي تفقدن وضعهن في المجتمع، وتحط بهن أن يكن مجرد أدوات للرجال، **والعبء الثاني** هو النظام الرأسمالي الاقتصادي الذي ينظر إليهن كمجال للاستغلال وأداة من أدوات الإنتاج». ومع أن الدستور الموزمبقي ينص على أن تحرير المرأة هو جزء من صميم مهام الدولة. فإن فريليمو وافقت على قانون ينص على أن تفقد المرأة في موزمبيق جنسيتها الموزمبيقية إذا تزوجت أجنبيًا، في حين أن الرجل لا يفقد جنسيته إذا تزوج أجنبية.

ومعنى هذا أن جراسا إذن تزوجت مانديلا الأجنبي قد تفقد جنسيتها، وتفقد لقب أم الوطن، وهي بلا شك لا تريد أن تفقد مركزها وقيادتها في بلادها، حتى وإن كان من أجل رجل ذي مركز عالمي؛ لذلك فقد ظلت تعلن مراراً «سأظل دائماً زوجة سامورا ماشيل وسأبقى أنأدى مسز ماشيل، فهذه هي الوسيلة الوحيدة التي أستبقى بها زوجي حياً».

والأثر الآخر الذي يحدثه الزواج بالنسبة للبلدين، أن هذا الارتباط قد يحدث بعض الكسب لجنوب إفريقيا. فالاستقرار العسكري لجنوب إفريقيا سيكون أكثر وثوقاً، والتحالف والروابط الثقافية والسياحية والأمنية تصبح أكثر اتصالاً. ولكن عبئاً ما قد يعود على جنوب إفريقيا من الناحية الاقتصادية، عبئاً مشابهاً لعبء ألمانيا الشرقية التي حملته على عاتقها ألمانيا الغربية بعد سقوط جدار برلين.

ومن جهة أخرى قد ينكأ الجراح القديمة بين البلدين التي أحدثها ميثاق «أنكومي» ميثاق عدم الاعتداء، وجرى بين سامورا ماشيل والرئيس العنصرى بوثا عام ١٩٨٤م، والذي على أساسه قبلت موزمبيق أن توقف تأييدها للجنح العسكري لحزب المؤتمر الوطنى الإفريقى، الذى كان يقود حركة النضال ضد حكم جنوب إفريقيا العنصرى وينطلق من أراضي موزمبيق، وفى المقابل توقف جنوب إفريقيا تأييدها لحركة رينامو المناوئة لموزمبيق، وكان هذا اتفاقاً تكتيكياً من جانب سامورا ليتجنب المزيد من إراقة الدماء، وبالنسبة للرئيس العنصرى بوثا فقد استطاع أن يشدد ضرباته على قواعد حزب المؤتمر الوطنى فى موزمبيق، ويصل بهم إلى حافة المجاعة الجماعية.

وعلى ضوء هذه الاعتبارات فقد عرض مانديلا على جراسا - كنوع من التوفيق - أن تزوره كل شهر فى جنوب إفريقيا ويقضيا أسبوعين معاً، مع الأخذ فى الاعتبار أن

جراسا زعيمة، ولها عمل اجتماعي عام تقوم به من أجل نساء موزمبيق وأطفالهم، وهذا يضاعف عبء مسؤولياتها في بلدها خلال الأسبوعين الآخرين .

ولكن هذا العرض التوفيقى الذى بدأ أنه مناسب لاثنين قررا أن يضعا مصالح أوطانهما قبل صالحهما الخاص لقي معارضة لمن نظروا إليه فى الإطار الأخلاقى، واعتبروا أنه من الخطأ البالغ أن يعيشا معا فى الخطيئة، فالأسقف ديزمونت توتو الحائز على جائزة نوبل للسلام، والرئيس السابق للكنيسة الإنجيلية لجنوب إفريقيا قال: إن الاثنين يضربان مثلاً سيئاً للشباب بعدم زواجهما، وأمل أن يغيرا هذا الأمر . والتعليق نفسه جاء من راعى الكنيسة الذى عقد زواج وبنى من مانديلا، وكذلك من زعيم الحزب الديمقراطى المسيحى الإفريقى الذى علق قائلاً: «إن هذه العلاقة لا تصنع مثلاً طيباً، وتشجع على الإقامة المشتركة فى مجتمع أسود». وكان يشير بذلك إلى الحالة التى كانت قائمة أيام النظام العنصرى عندما كان يمتنع على الرجال السود العاملين فى أماكن بعيدة عن بيوتهم ان يحضروا أسرهم معهم؛ مما كان يؤدي إلى علاقات غير شرعية فى أماكن العمل . ورغم أن ذلك يتعلق بماض انتهى، وعادت الزوجات إلى أزواجهن فلا يزال له تأثيره المدمر، فبعض الأزواج اعتادوا هذه الطريقة ولم يعودوا قادرين على الإقلاع عنها، وترتب على هذا أن عدداً كبيراً من الزوجات فى جنوب إفريقيا صارت تنتهى بالطلاق فى المحاكم، والأسر التى انفصل فيها الأزواج زادت بنسبة ٢٠٪ من العشرين عاماً الماضية . وهناك دعاوى كثيرة ترفعها الأمهات تطلب النفقة لأولادهن من الآباء الغائبين .

## إيضالين

أما المرأة الثانية فى حياة مانديلا فهى زوجته الأولى إيفلين ماسى التى ارتبط بها قبل زواجه من وبنى، فقد عبرت عن رفضها لهذه العلاقة، وأعلنت بغضب: «إنه فى عالم يحتاج بإلحاح إلى مزيد من جرعات الأخلاق، فإن معيشة هؤلاء معاً رسالة خاطئة موجهة إلى الشباب تقول لهم إن الزواج ليس مهماً، وأنا أفضل أن يتزوج مانديلا بدلاً من أن يشير إليه الناس هذا هو الرجل البالغ ٧٩ عاماً مع عشيقته، إنه يحتاج إلى كرامة أن يكون زوجاً» .

والمعروف عن ايفلين - التي تزوجت مانديلا عام ١٩٤٦م - أنها شديدة التدين ، وكانت تعمل ممرضة ثم تقاعدت ، وتعمل الآن في مجال الشؤون الاجتماعية ، وكان من أسباب انفصالها كرهها للعمل السياسي . . وفي عام ١٩٥٥م خيرت مانديلا بينها وبين استمراره في حزب المؤتمر الوطني . وبعد وقت قصير قبض على مانديلا مع آخرين ، وأمضى أسبوعين في السجن ، وعندما عاد إلى منزله وجدها قد تركته وأخذت الأولاد ، يقول مانديلا في «سيرته الذاتية» : رجعت إلى مسكن موحش ، ووجدت أنني لن أستنفذ حياتي في الصراع معها وإقناعها بالنضال الوطني ؛ فهي لا تستطيع أن تعيش مع تكريس حياتي لأمر آخر غيرها وغير الأسرة ، إنها امرأة طيبة جداً جذابة قوية مؤمنة ، وهي أم مثالية ، وأنا لم أفقد احترامي وإعجابي بها ، ولكن في النهاية نحن لا نستطيع أن نجعل زواجنا باقياً ، فسعيت إلى الطلاق وحصلت عليه في ١٤ يونيو ١٩٥٥م ، وقد تزوجت ايفلين بعد ٤٠ سنة منذ طلاقها من مانديلا من «ساميون راكيناييل» وهو أرملة يبلغ ٧٧ عاماً ، وأب لسبعة أولاد . وقالت تعليقاً على زواجها : إنها منذ انفصالها عن مانديلا ظلت تدعو الله أن يرزقها بشريك حياة آخر ليؤنس وحدتها ، وقد استجاب الله لها .

## وينى مانديلا

ورفضت وينى - المرأة الثالثة في حياة مانديلا ، والزوجة الثانية له - التعليق على قصة الحب لزوجها السابق قائلة : إنه لا شأن لها بهذا الأمر . ولكن هذا القول الذي يبدو متعقلاً لا يعنى الحقيقة ، فقد سبق أن صرحت أنها لا تعترف بطلاقها من مانديلا الذي أجبرت عليه ، وتم دون رضاها ، وأن أى ارتباط من جانبه هو ارتباط باطل .

وفي خضم هذا الجدل حول العلاقة بين العاشقين ، أعلن مانديلا زواجه من محبوبته جراسا في يوليو ١٩٩٨م ، ولم يبق ليوواجه العواصف المحتملة من هذه الزيجة ؛ إذ سرعان ما تنحى عن منصبه كرئيس دولة ورئيس الحزب لنائبه تابومبيكي إثر الانتخابات التشريعية التي جرت في جنوب إفريقيا في يونيو ١٩٩٩م ، ويعيش مانديلا الآن بعيداً عن الأضواء مع من اختارها قبله .